



مذريع

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
www.almadasupplements.com
العدد (5244) السنة العشرون - الأربعاء (17) آب 2022

مذريع
m a n a r a t

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون



إبن طفيل

حي بن يقظان لإبن طفيل.. فكر في الأفضل



علي حسين

»

حدثنا عنه ابن رشد بحماس بالغ: "رأيت منه غزارة حفظ، لم اظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن، يملك نظرة حادة. كان قصير القامة، تزيين وجهه لحية خطها الشيب".

«

وحدثنا عنه عبد الواحد المراكشي قائلاً: "أبو بكر محمد بن طفيل، أحد فلاسفة المسلمين، كان متحققاً بجميع اجزاء الفلسفة. وله تصانيف في انواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغيرها. ومن رسائله في الطبيعيات، رسالة سماها رسالة حي بن يقظان غرضه فيها، بيان مبدأ النوع الانساني، وهي رسالة لطيفة الجرم، كبيرة الفائدة في ذلك الفن - المعجب في تلخيص اخبار المغرب تحقيق محمد سعيد العريان -".

لقب بأبي التطور، لكنه رفض بحزم ان يوضع في خانة الفلاسفة. كان همه قبوله في طائفة الشعراء، لكن كتاب السيرة اعترضوا على هروبه من الفلسفة، ومحاولته كتابه قصة رمزية للانسان الكائن الاجتماعي، الذي ينتج افكاره ومعارفه في خضم انتاجه لحياته المادية، ولتاريخه اليومي.. ولهذا فان صاحبنا لا يمكن ان يكون إلا صورة للعالم الفيلسوف المتصوف. سيصبح همه فيما بعد أن يمزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الإسلامية، ليطالع الناس برأي جديد في الكون. وقد اثار اهتمام امر العلاقة بين الفرد والمجتمع، حيث ذهب الى ابعاد مما ذهب اليه "ابن باجة" الذي كان يرى ان خلاص الامة يتم على يد النخبة، بينما كان ابن طفيل يرى ان طريق الخلاص للعامة، وهي الفكرة التي طورها سبينوزا بعد اكثر من خمسمئة عام عندما قال ان هناك امل

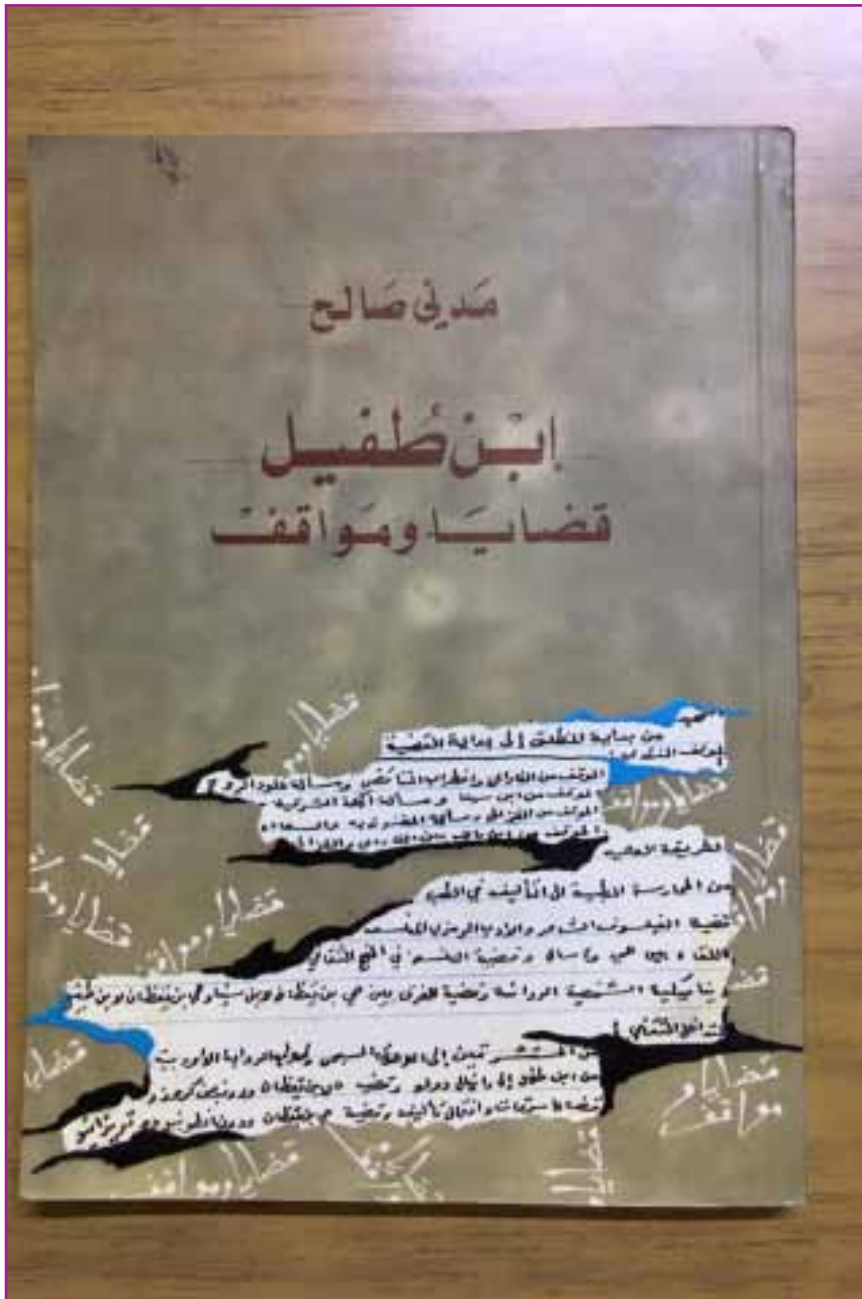
لجميع الناس.

كان يشرف على الخمسين حين دار حوار بينه وبين "ابن رشد" الذي كان يقترب من الثلاثين حول كتب ارسطو. يقول ابن رشد: "لما دخلت على امير المؤمنين (ابي يعقوب) وجدته هو وابو بكر بن طفيل، فاخذ ابو بكر يثني علي، فكان اول ما فاتحنى به امير المؤمنين، بعد ان سألني عن اسمي واسم ابي ونسبي، ان قال لي: ما رأيهم في السماء - يعني رأي الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة؟ فادركني الحياء والخوف، فاخذت اتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن ادري ما قرر معه ابن طفيل ففهم امير المؤمنين مني الورع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وافلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج اهل الاسلام عليهم، ولم يزل يبسطني بالكلام حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك".

حار المؤرخون وكتاب السير في معرفة تاريخ ميلاد (ابو بكر محمد بن عبد الملك ابن طفيل)، وتشير بعض المصادر انه ولد بين عامي 1100 و 1110 للميلاد، وإستندوا في ذلك الى انه يكبر ابن رشد بما يقارب العشرين عاماً - ولد ابن رشد عام 1126م - كانت ولادته في قرية تسمى برشانة "انتقات عائلته وهو صغير الى مدينة "وادي أش" والتي

تبعد بما يزيد عن 50 كم عن مدينة غرناطة، وقد جاء وصفها في كتاب الروض المعطار بانها "مدينة بالاندلس قريبة من غرناطة، كبيرة حولها المياه والانهار. وهي كثيرة التوت والاعناب واصناف الثمار والزيتون، والقطن بها كثير" - الروض المعطار تحقيق احسان عباس -.

في هذه البقعة، سينشأ الطفل قوي الجسم مثلما يصفه صاحب كتاب اخبار المغرب، لم يثر قدومه أي اهتمام من عائلته التي كانت تضم اربعة اخوة، عندما توفي والده ترك له مكتبة تضم كتباً في الفقه والشعر، سيرج في الدراسة، يحفظ القرآن وتدهشه قصاد الشعراء الجاهليين ويكتشف اشعار المتنبي وتحريره دعوته للنوبة، يجرب كتابة الشعر، وباصرار من والده تعلم الفقه، بعدها يتفرغ لدراسة علوم المنطق والفلسفة الطبيعية عند قدماء الفلاسفة اليونان. ويبدأ بقراءة شاملة للفلاسفة المسلمين وتدهشه فلسفة ابن باجة الذي توفي بمدينة فاس بعد ولادة ابن طفيل بسنوات. اضافة الى دراسته الرياضيات وتمرسه بدراسة وظائف الجسم البشري وكيمياء الادوية وطرق العلاج ليصبح واحدا من اشهر الاطباء حيث وجد في الطب علماً نبيلاً كما يقول. لكن والده كان يتمنى ان يصبح ابنه ذات يوم احد قضاة غرناطة. في العشرين من عمره وجد ان "وادي أش" لم تعد تلبى طموحه للمعرفة، فانتقل الى قرطبة وكان



عيشة الحيوانات إلا أنه اكتشف أن جلده يختلف : ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار وأنواع الريش.. وكان يرى ما لها من سرعة في العدو وقوة البطش، وما لها من الأسلحة المعدة لمداخلة من ينازعها، مثل القرون والأنياب والحوافر والمخالب .. وعندما بلغ السابعة من عمره اتخذ لنفسه رداءً من أوراق الشجر. وبعدما تتوفى الطبيعة التي رعته، يحزن عليها حزناً شديداً، ويفكر في موضوع الموت وكيف يحدث، فيقوم بتشريح جسدها ليكتشف أن هناك خلل في القلب أدى إلى خروج الروح من الجسد. واكتشف أن الموت لم يحدث ضرراً في الجسد، فاستنتج أن الموت ينتج عن انحلال العلاقة بين الجسد والروح.. وهذا هو سر طبيعة الحياة. أما اكتشافه الثاني فكان النار التي رآها مرتبطة بالحياة. وكانت تجاربه الأخرى في اكتشاف الطبيعة هي استعمال الأدوات.

تسهم دقة ابن طفيل في نقل ملاحظات "حي" وطريقة تفكيره في جعلنا نرى "حي" ونتعاش مع تجربته ونتبع كيف ينمو ويتطور وينتقل من معرفة إلى معرفة جديدة. ولما كان التطور هو موضوع القصة، فإن شخصية "حي" تصبح أمامنا شخصية متطورة ونامية.

عندما يبلغ "حي" الثامنة والعشرين من عمره، يتمكن من معرفة عالم الأفلاك، ويبدأ في النظر بخالق لهذا الكون.. وي طرح مسألة فلسفية شغلت الفلاسفة هل العالم قديم أم حديث؟.. لم يتمكن من الوصول إلى اجابة، لكنه سيقر أن مشكلة قدم العالم أو حدوثه منفصلة كلياً عن دلائل وجود سبب أول للعالم، أي أننا إذا ساء افتراضنا قديماً أو حديثاً فلا بد له من صانع يكون "كاملاً، عليمًا، منصفًا بجميع الكمالات، وخالياً من جميع النقائص .."

ان قصة حي بن يقظان لا تتوقف عند لحظة اكتشاف الذات والإله والعالم والسلام الذي يعقده مع الطبيعة كي يعمر الأرض، لكنها ستتناول قضية العلاقة بين الفلسفة والدين، حين يلتقي "حي"

مع أسبال الذي ينتقل إلى هذه الجزيرة بعد أن اختلف مع أخيه سلامان حول بعض القضايا التي تتعلق بالإيمان، فأبسال شديد الغوص في المعاني الروحية، أما سلامان فكان شديد الاهتمام بالظاهر وابتعد الناس عن التأويل، ولهذا افترق عنه أسبال وجاء إلى الجزيرة التي يعيش فيها "حي" حيث يلتقيان ويبدأ أسبال بتعليم "حي" الكلام، ولما تم له ذلك اكتشف أن ما توصل إليه حي بن يقظان هو نفسه الذي تقول به ديانتته التي أتت بها نبي من الأنبياء.. ورأى أسبال في حي بن يقظان ولياً من أولياء الله. ثم يحكي أسبال لحي حكاية الجزيرة التي أتت منها وكيف أن أهلها يأخذون الدين بظاهره دون تأويل لها، فضلاً عن الطقوس وأشكال العبادات، ويعجب حي بن يقظان من كل هذا وينتقده ويرى ضرورة أن يذهب إلى هذه الجزيرة لإقناع الناس برأيه وبتأويل أسرار الحكمة لهم، ويتحقق له ذلك، لكن الناس سيسخرون منه، فهم فرحون بما لديهم، ويرى حي أن الجهالة قد غمرتهم واتخذوا من الإله وسيلة لتنفيذ رغباتهم، ولهذا يقرر العودة إلى جزيرته ومع أسبال، تاركين قوم سلامان لحقائقتهم الثابتة، ولا خلاصهم للجمود، ولديانة قد حلت منها الحياة.

يصف الباحث الإسباني "منندث بيلايو" حي بن يقظان لابن طفيل بأنها أعظم آثار الأدب العربي أصالة وتفرداً.. وقد ترجمت إلى الإنكليزية عام 1674 فانتشرت اهتمام الكتاب والباحثين ويذهب البعض إلى أن كتاب ابن طفيل مارس تأثيراً كبيراً على رواية روبنسون كروزو للكاتب الإنكليزي دانيال ديفو والتي نشرت عام 1719.

هناك فرضيتان، الأولى أنه ولد من ابوين شأن أي إنسان آخر، والثانية يجعله يتولد من الطين مباشرة. ويقدم لنا ابن طفيل نظريته التي تقول أن المرء الذي يعيش وحيداً من دون صحبة أو جماعة بشرية، يمكنه من خلال الاستعانة بالملكات العقلية وحدها، أن يكتشف كل ما عرفته البشرية، وكل ما وصلت إليه، فهو رغم عزلته المطلقة، وفي حدود قدراته العقلية، يمكنه أن يصل إلى الله، ويكتشف أنه لا يمكنه من بلوغ الحقيقة إلا إذا كان في حالة سلام مع نفسه ومع الطبيعة التي يكتشفها شيئاً فشيئاً. يكتب جميل صليبي في تقديمه لحي بن يقظان: "إن المذهب الذي وصل إليه ابن طفيل، هو المذهب العقلي، لأنه يعتقد أن في وسع الإنسان، أن يرتقي من المحسوس إلى الملموس، ويصل بقواه الطبيعية إلى معرفة الله والعالم .. وهكذا نرى أن "حي" يمكن أن يكون قد نبت من الأرض: "فأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فانهم قالوا إن بطناً من أرض تلك الجزيرة، تخمرت فيها طينة على مر السنين"، أو أن يكون ابناً لاحدى الاميرات، وثمره غير شرعية لعلاقة بينها وبين رجل لم تسمح مكانتها بالارتباط به، ولهذا القي بـ "حي" في النهر ليحمله إلى جزيرة يتعلم فيها كيف يكون ابناً لذاته، ولإنسانية. ويخبرنا ابن طفيل أن الله اودع في روح "حي" الحرية والقدرة على أن يخرج إلى الوجود، وهذه الوديعه هي العقل. كان على "حي" كي يبقى على قيد الحياة، أن يجد لنفسه موقعا في الطبيعة، وأن يتكيف معها، وأن يذوب فيها، والخطوة الأولى أن يقلد ما يراه. فهو طفل تعهدته طبيعة مات ولدها وارضعته حتى أصبح قادراً على تناول الطعام، ومع أنه عاش

هل يمكن للعقل أن يترقى ترقياً طبيعياً نحو الحقيقة. يخبرنا ابن طفيل أنه أخذ عنوان كتابه واسماء شخصياته من ابن سينا. وقد قال ابن سينا في مقدمة كتابه - حقه احمد امين -: "إن اصراركم، يا أخوتي، في أن اضع لكم شرحاً لتاريخ حي بن يقظان يزيد خلجي عندما ارفض ذلك الطلب" ولهذا يحاول ابن طفيل وضع شرح لتاريخ حي بن يقظان فيكتب في مقدمة كتابه: "سألت ايها الاخ الكريم الصفي الحميم - منحل الله البقاء الأبدي، واسعد السعد السرمدي - أن ابث اليك ما امكنني به من اسرار الحكمة المشرقية" - حي بن يقظان تحقيق احمد امين.. وهناك أكثر من تحقيق قام به كل من جميل صليبي، فاروق سعد، يوسف زيدان - وقصة حي بن يقظان ربما هي النص الفلسفي العربي الوحيد الذي تمت اعادة كتابته من عدد من الفلاسفة فجندها عند ابن سينا، وابن النفيس والسهروودي وابن طفيل، وتناول الفلاسفة الأربعة موضوعاً واحداً وهو كيف الوصول إلى العقل الخالص دون الاعتماد على وحى أو نبي لأن المعرفة مكتسبة وليست توفيقية.. والعنوان يحمل دلالاته الرمزية "حي بن يقظان" فالحياء وليدة اليقظة، وعلى حد تعبير حسن حنفي فاليقظة في حكاية ابن طفيل هي الاصل والحياة فرع منها - حسن حنفي مقدمة حي بن يقظان - فالإنسان يحيا اولاً ثم يبنثق الوعي من خلال الحياة. ينسج لنا ابن طفيل رواية بطليها "حي بن يقظان" فيخبرنا: "ذكر سلفنا الصالح أن جزيرة من جزائر الهند، وهي الجزيرة التي يتوالد فيها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساءً، وهي التي ذكرها المسعودي أنها جزيرة الواق واق". كيف ولد

ينتقل منها إلى اشبيلية، هناك حيث اتجه إلى دراسة الطب والعمارة وعلم الفلك وسيخبرنا ابن رشد أن ابن طفيل وجد نظاماً فلكياً ومبادئ لحركة النجوم، تختلف عن التي قدمها بطليموس في كتابه الشهير "المجسطي". يستقر بعد ذلك في مدينة مراكش عاصمة الدولة الموحدية. كان ابن طفيل معجباً بالحركة التي قام بها الموحدون وكتب في مديح الرسالة الموحدية "التي كتبها" المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، وكان بعض حكامها يولون عناية للعلوم العقلية مما اتاح للفلسفة أن تزدهر زماناً قليلاً في قصورهم. وفي هذه الفترة اشتغل ابن طفيل كاتباً عند حاكم غرناطة، بعدها عمل في ديوان سعيد ابن المؤمن لما كان والياً على طنجة. لكن الفترة الهامة في حياته هي تلك التي امضاها في العمل مع "ابي يعقوب يوسف" سلطان الموحدين، وقد اشتهر بأنه "ملك فيلسوف" وكان محباً للعلم والعلماء قريههم، يصفه ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان بأنه كان اعرف الناس بكلام العرب واحفظهم للشعر. وقد طمح إلى تقريب العلماء والفلاسفة، وكان ابن طفيل اقربهم إليه. يخبرنا ابن ابي الزرع بان ابن طفيل كان وزيراً لابن يعقوب وطبيبه الخاص - الروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب -.

في كتابه تاريخ الفلسفة في الإسلام يقول دي بور: "فنرى ابو بكر بن عبد الملك بن طفيل القيسي، يتبوأ منصب وزير وطبيب عند ابي يعقوب. بعد أن كان يشغل منصب الحجابة في غرناطة. ويولج ان حياته لم تكن حافلة بالتقلبات، فقد كان حبه للكتب أكثر من حبه للناس، وفي مكتبة ابو يعقوب، حصل كثيراً من العلم الذي كان يحتاج إليه في صنعته، او ينفع به ظمأه للمعرفة". - ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة -، ولما توفي ابو يعقوب تولى الخلافة بعده ابنه ابو يوسف فابقي على ابن طفيل وزيراً.. تعمقت علاقته بابن رشد وكان يدور بينهما حوار متواصل حول الفلسفة والدين يبنه فيه ابن طفيل تلميذه "ابن رشد" إلى ضرورة التوفيق بين النظر العقلي والإيمان: "أرى أننا معشر المفكرين بمثابة الجسر بين علم الكلام والمؤمنين، لكن لا يجب أن يكون الجسر واسع من النهر". في سنواته الأخيرة يطلب من الخليفة أن يعين ابن رشد طبيباً في القصر بدلاً منه. كان قد اصيب ببعض الامراض، واخبر ابن رشد "أنه مصاب بسرطان في الامعاء. في شتاء عام 1185 توفي ابن طفيل وكان قد تجاوز الثمانين من عمره وقد حضر جنازته السلطان ومعه ابن رشد الذي اخذ يردد ابيات كتبها ابن طفيل عن الفراق:

يا باكي فرقة الاحباب عن شحط... هلا بكيت فراق الروح للدين نور تردد في طين إلى أجل... فانحاز علوا وخلي الطين للكفن.

من يتابع سيرة ابن طفيل على رغم قلة المصادر التي كتبت عن حياته سيجدها عبارة عن رحلة بين المعارف، فما ان يستقر على علم، حتى يجد نفسه يخوض غمار علم آخر، يخرج من مكتبة ليدخل مكتبة اخرى، ويبرع في مسألة فلسفية ليجد نفسه مشغولاً بمسألة أخرى.. حياة طابعها الاستقرار، وهما المزيد من العلم. كان ابن طفيل مهتماً بان يمزج بين العلم اليوناني وحكمة اهل الشرق، ليقدم خلاصة جديدة عن الكون والإنسان. وقد اثار اهتمامه قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع وكان يرى ان منشأ الجماعة يتحدد باهمية الفرد داخل المجتمع. ولعل الفكرة الاساسية التي اضافها ابن طفيل إلى التراث الفلسفي هي تلك التي تتعلق بانحاد العقل الفعال بالإنسان، والتي يبنها في كتابه "حي بن يقظان". كتب ابن طفيل كتابه "حي بن يقظان" سنة 1180 قبل وفاته بخمسة اعوام.. وكان هدفه طرح سؤال:

ابن طفيل وقصته الفلسفية

مروى الشاكري



د

ابن طفيل الأندلسي هو مبتكر قصة الطفل البري في الفلسفة. وتلك القصة تحمل اسم حي بن يقظان والتي تتحدث عن طفل قد ترعرع في أحضان طيبة في جزيرة في المحيط الهندي مجهولة الاسم. وفي القصة، يصل حي بن يقظان إلى حالة من الفهم التام للعالم وحالة من النشوة. وللتأمل في إمكانات البحث عن حياة جيدة، لا يقدم حي بن يقظان يوتوبيا واحدة بل اثنتان للعقل وفي عزلة تامة، ومجتمع أخلاقي في ظل قواعد القانون. كل منهما لديه نسخة من السعادة البشرية. يحفزهم ابن طفيل ضد بعضهم البعض، لكن كل منهم يتكشف "في اللامكان" في العالم.

د

ثم يلاحظ حي نباتات وحيوانات الجزيرة. ثم يتأمل في فكرة وجود "روح حيوية" عنصرية لدى اكتشافه النار. إن تفكيره في تعدد المواد يؤدي به إلى استنتاج أنه يجب أن يكون مصدره مصدرًا فرديًا غير ماديًا أو السبب الأول. ثم يلاحظ الحركة الكاملة للأجرام السماوية ويبدأ سلسلة من التمارين الزكية (مثل الدوران حتى يصيبه الدوار) لمحاكاة هذا النظام العالمي الخفي. وفي سن الخمسين، يتراجع عن العالم المادي، ويتأمل في كهفه حتى يصل أخيرًا إلى حالة من النشوة. والعقل، عند ابن طفيل، ليس دليلاً مطلقاً على الحقيقة. الفرق بين رحلات حي النشيطة للعقل والفكر السياسي العقلاني اللاحق هو دور العقل. ومع ذلك، فإن العديد من التعليقات الأوروبية الحديثة أو ترجمات حي تخطئ بين هذا الأمر من خلال تأطير الحكاية الرمزية من خلال العقل. في عام 1671، قام إدوارد بوكوك بتسمية ترجمته اللاتينية للكتاب بـ "الفيلسوف الذي يعلم نفسه بنفسه: والذي ظهر فيه كيف يمكن للعقل البشري أن يصعد من التأمل في المستوى الأدنى إلى معرفة ذات مستوى أعلى". في عام 1708، كانت ترجمة سيمون أولكي للإنجليزية هي "تحسين العقل البشري"، وأكدت أيضًا على قدرة العقل على "معرفة الله". بالنسبة لابن طفيل، ومع ذلك، فإن المعرفة الحقيقية لله والعالم - باعتبارهم يوتوبيا "للعقل" (أو الروح) - لا يمكن أن تأتي إلا من خلال الحدس التأملي المثالي وليس الفكر العقلاني المطلق. هذه هي أول يوتوبيا لابن طفيل: جزيرة غير مأهولة حيث يتراجع الفيلسوف البري إلى كهف للوصول إلى

النشوة من خلال التأمل والانسحاب من العالم. وذلك من شأنها أن يصيب فريديتش نيتشه بزهارا تشترا: "أهرب يا صديقي إلى وحدتك!" ما تبقى من رمزية يقدم مشكلة الحياة المجتمعية واليوتوبيا الثانية. بعد تحقيق حي لحالته المثالية، يتم ضياع الزاهد في جزيرته. وهنا فوجئ حي باكتشاف كائن آخر يشبهه. ويقوده الفضول إلى إقامة علاقات صداقة مع أبسال. يدرس أبسال لغة الحي، ويصف عادات شعب الجزيرة الملتزم بالقانون. يقرر الرجلان أن دين سكان الجزيرة هو نسخة أقل من الحقيقة التي اكتشفها حي، حقيقة محاطة برموز وأمثال. حي هو الدافع وراء الرحمة لتعليمهم الحقيقة. بعد ذلك يسافرون إلى منزل أبسال. وهنا كان اللقاء كارثي. يشعر سكان جزيرة أبسال بأنهم مضطرون لمبادئهم الأخلاقية المتمثلة في كرم الضيافة تجاه الأجانب، والصداقة مع أبسال، والاتصال بجميع الناس للترحيب بحي. ولكن سرعان ما أدت محاولات حي المستمرة للوعظ إلى إزعاجهم. يدرك حي أنهم غير قادرين على التفاهم. إنهم مدفوعون بإرضاء الجسد وليس العقل. لا يمكن أن يكون هناك مجتمع مثالي لأنه لا يمكن للجمع تحقيق حالة الكمال في روحهم. التنوير ممكن فقط للاختيار، وفقًا لترتيب مقدس، أو قوس هرمي. (هذا التسلسل الهرمي للوجود والمعرفة هو رسالة أساسية من الأفلاطونية الحديثة.) يخلص حي إلى أن إقناع الناس بعيدًا عن محطاتهم "الطبيعية" من شأنه أن يفسدهم أكثر. إن القوانين التي تبجلها "الجماهير"، سواء تم الكشف عنها أو تفكيرها هي

فرصتها الوحيدة لتحقيق حياة جيدة. قد تبدو مثل سكان الجزيرة وشرعيتهم وضيافتهم وصداقتهم وتربطهم معقولة، لكنها موجودة أيضًا في "اللامكان" في العالم. ومن هنا فإن معضلتهم: إما أن يلتزموا بها ويتحملوا انتقادات حي، أو ينتهكوا من خلال نفيه له. هذا نقد جذري للقانون ومبادئه الأخلاقية: فهي ضرورية من الناحية المعيارية للحياة الاجتماعية ولكنها متناقضة بطبيعتها ومستحيلة. إنها توبيخ خاطئ للحياة السياسية. مثل سكان الجزر، نتبع المبادئ التي يمكن أن تقوض أنفسهم. لكي تكون مضيافين، يجب أن تكون منفتحين للغريب الذي ينتهك كرم الضيافة. لكي تكون ديمقراطيين، يجب أن نضم أولئك الذين يعارضون الديمقراطية. لكي تكون دنيويًا، يجب أن تكون مواجهاً مع الآخرين فرضًا للتعليم منهم وليس فقط عنهم. في النهاية، يعود حي إلى جزيرته مع أبسال، حيث يستمتعون بحياة مليئة بالنشوة حتى الموت. إنهم يتخلون عن البحث عن مجتمع مثالي للقوانين. يوتوبيا هو السعي وراء العقل الذي ترك لنفسه وراء عيوب اللغة والقانون والأخلاق - ربما حتى وراء الحياة نفسها. يقدم سكان الجزر درسًا أقل وضوحًا: مثلنا ومبادئنا تقوض نفسها ولكن هذا ضروري بحد ذاته للحياة السياسية. ومن أجل الحصول على جزيرة من الأخلاق الخاصة والقانون هو يوتوبيا مستحيلة.

كيف أثر ابن طفيل على الفكر الغربي الحديث؟ روايته «حي بن يقظان» من أهم الكتب التي بشرت بالثورة الصناعية

خالد الحلي

د

في كتابها «الجذور الحيوية لعصر التنوير في أوروبا: تأثير ابن طفيل على الفكر الغربي الحديث» تخلص الدكتورة سمر العطار الأستاذة في جامعة سديني، إلى نتيجة كان سيتوصل إليها أدوارد سعيد لو عرف عن تأثير ابن طفيل على الفكر الأوروبي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولربما توصل إلى نتيجة مختلفة في كتابه الشهير: «الاستشراق»، حين تساءل: لماذا يمجّد الكاتب الإنجليزي الكسندر بوب الإنسان على الإطلاق، بينما يمجّد الورد كرومر، ممثلاً بريطانيا في مصر المحتلة، الإنسان الغربي فقط؟».

د

صدر هذا الكتاب باللغة الانجليزية أخيراً عن دار النشر الأميركية «ليكسينغتون رومان وليتليفيلد»، ومن الأصدقاء الإيجابية التي تركها ما كتبه عنه تشارلس بترورث بروفيسور العلوم السياسية في جامعة ميريلاند، حيث كتب يقول: «إن حي بن يقظان» الذي تعرضه سمر العطار في كتابها ينتمي إلى عصرنا. فهو رجل يعلم التسامح فوق كل شيء»، وقال بترورث بأن ذلك صعب القبول لدى الكثيرين الذين فهموا الكتاب على أنه يكشف لنا أسرار فلسفة الإشراق التي كتب عنها ابن سينا. لكن بترورث يستدرك فيقول: «إن سمر العطار تجيب على هذه الاعتراضات مشيرة إلى عشرات المفكرين الغربيين في أوائل العصور الحديثة الذين ربّما استعاروا عن قصد أو غير قصد أفكاراً كثيرة من رواية ابن طفيل». لقد تحرت الدكتورة العطار في كتابها هذا الذي صدر بـ 174 صفحة من القطع الوسط، عن الجذور الحيوية لعصر التنوير في أوروبا بما يهّم المختصين في الفلسفة القديمة والحديثة، والأدب المقارن في القرن الثامن عشر، خاصة الأدبين الإنجليزي والفرنسي، الدين، العلوم السياسية، التريية، تاريخ الفكر، ودراسات الشرق الأوسط.

مهدت المؤلفات للكتاب بسلسلة من التواريخ المهمة حول ابن طفيل الفيلسوف العربي الأندلسي الذي عاش في القرن الثاني عشر وبعض المفكرين الأوروبيين الذين تأثروا به حتى عام 1859، وجاء الكتاب بثمانية فصول تناولت هذا التأثير. ويمكن اعتبار روايته «حي بن يقظان» من أهم الكتب التي بشرت بالثورة الصناعية، وأفكارها مبنوثة بشكل أو بآخر، وبدرجات مختلفة، في كتب جون لوك، أيزك نيوتن، إيمانويل كانت، جان جاك



العرب والمسلمين. وليس هناك حضارة تعود فقط إلى جنس بشري معين. فكلنا مختلطون ببعضنا بعضاً منذ بدء الخليقة. ومن الخطأ والخطر في أن واحد أن يكتب علماء الغرب عن تاريخ فكري غربي نقي من كل تأثيرات الأجنبي الآخر، أو عن النهضة الصناعية الغربية، أو عن العقل الغربي. فالمفكرون والعلماء الغربيون أمثال جون لو، وتوماس هوبس، وغاليليو، وديكارت، وأيزك نيوتن، وسبينوزا، ولايبنيثس، وفولتير، وروسو، وإيمانويل كانت، وداروين، وغيرهم، لم يخلقوا من لا شيء كان هناك أساتذة لهم حتى من بين أعدائهم، وأعداء بلادهم.

وتقول المؤلفات ان ابن طفيل عارض كل المعتقدات التقليدية في القرن الثاني عشر. وكان شعار بطله «حي بن يقظان» هو أن الإنسان يجب ألا يعتمد على سلطة أحد، بل على عقله فقط. وليس هناك من يستطيع فرض آرائه على الآخرين، أو أن يدعي أن طريقه هو الطريق الصحيح لاكتشاف الحقيقة. إن البشر على الرغم من اختلافاتهم الكبيرة إلا أن هناك أشياء كثيرة تجمعهم. وعلى رأس هذه الأشياء عقولهم وإنسانيتهم. المساواة، الحرية، التسامح كلها قيم أساسية في أي مجتمع. العنف مرفوض، ويجب أن يتجنبه الإنسان بأي شكل من الأشكال. وذاك الذي يستخدم العنف لا يفكر عقلاً بل بعمله، أو بنتائج هذا العمل.

عن الشرق الأوسط

رأس هذا الفريق الذي يؤيد وجهة النظر تلك، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد، البروفيسور صامويل هنتينغتون. ففي كتابه «صراع الحضارات» يؤكد أن الغرب يختلف تماماً عن الحضارات الأخرى في قيمه ومؤسساته التي تشمل المسيحية، التعددية، الفردية، واحترام القانون، مما ساعده على اكتشاف الحداثة، والتوسع في العالم، وصار عرضة للحسد من كل المجتمعات الأخرى. ويستشهد بأثر م شليسنغر قائلاً: «إن أوروبا هي المصدر الفريد بنوعه لكل هذه الأفكار حول حرية الفرد، الديمقراطية السياسية، احترام القانون، حقوق الإنسان، والحرية الثقافية. هذه هي أفكار أوروبية وليست آسيوية، أو إفريقية، أو شرق أوسطية، إلا بالتبني». وبهذا فإنه يعتقد، كما يبدو، أن التاريخ هو شيء ثابت، وغير متحرك. فالآسيوي، والإفريقي، والشرق أوسطي، له صفات مميزة سواء في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل. وهذه الصفات لا تتغير بتغير اللحظة التاريخية.

وإن ترفض المؤلفات هذه الطروحات، تعبر عن اعتقادها بأن كل الحضارات متأثرة بعضها بعضاً. فالليونانيون مثلاً تأثروا بالمصريين القدماء، وحضارات الشرق بأجمعها. والرومان استفادوا كثيراً من اليونانيين. والعرب استعاروا الكثير من الهنود، والصينيين، والفرس، واليونانيين وغيرهم. وأوروبا لم تثر فقط التراث اليوناني الروماني، بل إنها ورثت أيضاً تراث أعدائها

روسو، فولتير وآخرين. وهذا يؤكد تبني مفكري أوروبا في عصر التنوير قيم «حي بن يقظان» حول المساواة، والحرية، والتسامح ممهدين بذلك للثورة الفرنسية. وإن تصف المؤلفات ابن طفيل بأنه عالم عربي منسي ومدفون تحت غبار التاريخ رغم تأثيره الواضح على مفكرين أوروبيين في أوائل العصر الحديث، تقول ان أفكاره ما زالت تستخدم حتى اليوم. بعضهم قبلها كما هي، آخرون حوّلوها، وخلقوها من جديد بأشكال مختلفة. ولكن ذكرى الرجل الذي كتب كتاباً مهماً كهذا نسيت تماماً.

ترجم كتاب «حي بن يقظان» للغات مختلفة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر. وما زال يترجم حتى اليوم. وتقول المؤلفات: «إن الكتاب مع ذلك لم يحتل أبداً الصدارة في الفكر الأوروبي الحديث، ولا درسه أحد بالتفصيل على أنه أحد منابع هذا الفكر. وظل الكتاب متداولاً بين أيدي المستشرقين فقط. وعندما ينظر الباحث إلى أي كتاب حول الفكر الغربي والحداثة لا يرى فيه أثراً لابن طفيل، أو غيره من الفلاسفة العرب أو المسلمين الذين أثروا تأثيراً بالغاً على الغرب، ونهضته الفكرية، ويبدو للقارئ أن المفكرين الغربيين قد خلقوا من طينة مختلفة عن أولئك الذين ولدوا وعاشوا في الشرق، وأن أفكارهم عن الله، والإنسان، والمجتمع، والتاريخ هي أفكار محصورة بالمجتمعات الغربية، وإذا ما استعاروا شيئاً فإنهم يستعبرون من بعضهم بعضاً، وليس من غير غربيين أجانب، وبخاصة العرب والمسلمون. على

ابن طفيل الفيلسوف الذي حول الحكمة إلى حكاية بديعة

محمد الغزي

”

كان يكتب بعقل فيلسوف وخيال شاعر. لغته مزيج من الحكمة والرموز العرفانية. حين أراد أن يتحدث عن فلسفته لجأ إلى الأسلوب القصصي وحدثنا، كما يتحدث الرواة في تراثنا العربي، فنقل عن السلف الصالح أن طفلاً نشأ في جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يولد فيها الإنسان من غير أم ولا أب وفيها شجر يثمر النساء.

“

ثم اندفع ابن طفيل يروي قصة هذا الطفل الذي حنت عليه ظبية وألتمته حلمة ثديها وأروته لبناً سائغاً، وما زالت تتعهد وتربيته وتدفع عنه الأذى حتى كبر وشب عن الطوق. يا لهذا الخيال الساحر الذي يذكرنا بلؤلؤة أخرى من لآلئ الأدب العربي ونقصد بها ”الف ليلة وليلة“. كيف تمكن هذا الفيلسوف ”العاقل“ من خلق هذه الأسطورة الحاملة؟ كيف حول مفاهيم الفلسفة ومصطلحاتها الغامضة إلى صور شعرية ورموز كنائية؟

ذاك جانب من جوانب هذه الشخصية الاستثنائية في تاريخ الفلسفة العربية أبي بكر بن طفيل.

من هو ابن طفيل؟

في مدينة وادي أش القريبة من غرناطة التي يعبرها نهر فرديس وتملؤها أسواق الحرير والكتان، ولد أبو بكر بن طفيل القيسي الأندلسي في أوائل القرن الثاني عشر. درس الفلسفة والطب وعلوم الشريعة في غرناطة فنبغ فيها جميعاً. تقلب في مناصب كثيرة، فكان كاتم أسرار حاكم غرناطة، ثم صار، بعد ذلك، وزيراً وطبيباً للأمير يوسف أبي يعقوب بن عبد المؤمن. وكان هذا الأمير، على ما يقول المؤرخون، أعلم الناس بكلام العرب، وأحفظهم لأيامها، فيه فطنة وذكاء. تعلم مبادئ الحكمة فأراد الاستزادة منها فاتخذ ابن طفيل وزيراً وطبيباً، وطلب منه دعوة مشاهير حكماء عصره إلى البلاط، يعقدون فيه المجالس العلمية، للجدل حيناً أو للرد على الخصوم حيناً آخر.

ذكر ابن رشد أن ابن طفيل جاءه يوماً وأخبره أن أمير المؤمنين ما فتئ يشكو من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه، ويقول ”لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً القرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل“. قال أبو الوليد ”فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس“.

تؤكد هذه القصة التي رواها ابن رشد نفسه أن لابن طفيل الفضل في العلاقة التي انعقدت بين الأمير



الحيوانات والطيور. يذكر ابن طفيل أنه أقدم على تأليف هذا العمل بعد أن سأله أحدهم عن أصل المعرفة الإنسانية فيقول ”وانتهى بي هذا السؤال إلى مبلغ من الغربة لا يصفه الإنسان ولا يقوم له بيان“. وبعد طول تفكير وتردد كتب ”حي بن يقظان“ إجابة عن هذا السؤال. يقول الباحث حسن حنفي ”لا يوجد نص فلسفي كتب أربع مرات من أربعة فلاسفة مختلفين وأحياناً مع تغيير العناوين مع بقاء المضمون مثل قصة حي بن يقظان، فهي مع أصلها اليوناني (سلامان وابسال) قصة رمزية لابن سينا (428 هـ) ولابن طفيل (581 هـ) وللسهروردي (587 هـ) وابن النفيس (687 هـ)، والموضوع واحد. كيفية الوصول إلى الحقيقة بالعقل الخالص من دون الاعتماد على معرفة لدنية. والعقل الخالص هو العقل الطبيعي الذي يتأمل في الظواهر الطبيعية والجمادية والنباتية والحيوانية“.

ثم يشرح العنوان قائلاً ”للعنوان دلالة رمزية، حي بن يقظان، فالحياة بنت اليقظة. واليقظة هي الأصل والحياة هي الفرع. فالإنسان يحيا أولاً ثم ينبثق الوعي من خلال الحياة“.

ترجم إدوارد بوكوك الكتاب سنة 1617 إلى اللغة اللاتينية واختار له عنواناً طريفاً هو ”الفيلسوف العصامي أو الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه“ Philosophus Autodidactus، مشيراً من خلال هذه الكناية إلى شخصية ابن يقظان الذي أدرك الحقائق بنفسه. ثم تعددت، بعد ذلك، اللغات التي استضافت هذه الرائعة الأدبية إلى أن بلغت أربعين لغة. وهذا العدد من الترجمات لم يحظ به أي أثر أدبي عربي آخر غير ”الف ليلة وليلة“. ويجمع الباحثون على أن هذه الترجمات قد تركت أثراً عميقاً في الآداب الأوروبية وفلسفاتنا، إذ استرقدتها الكثير من الأدباء كلما تحدثوا عن الإنسان الطبيعي، واستعان بها العديد من الفلاسفة كلما شرحوا النظرية الإشراقية أو مناقشاتنا.

ومن الكتاب الذين اقتبسوا هذه القصة الكاتب البريطاني دانييل ديفو (1660-1731) الذي كتب مقتنياً خطي ابن طفيل قصته الشهيرة ”روبنسون كروزو“. تروي هذه القصة، هي أيضاً، سيرة فتى عاش منفرداً في جزيرة بعد أن تحطمت السفينة التي كانت تقله. فكان عليه أن يبقى طوال ثمان وعشرين سنة وحيداً منقطعاً عن أسباب الحضارة والمجتمع.

تصور القصة، بشاعرية لافتة، مراحل حياة كروزو في هذه الجزيرة، فقد بدأ في أيامه الأولى ببناء مسكنه من مخلفات السفينة التي عصفت بها الرياح، وبعد ذلك عمد إلى حثرت الأرض وزرعها ثم إلى الصيد وتربية الماعز. وتتوالى المراحل، حتى يتمكن البطل، على الرغم من عزله، من توفير الاحتياجات الأساسية بقوة عزمته. هذا ما تريد أن تقولها القصة محتفية بالفرديانية ورمزياتها، مشيدة بمزايا بزوغ أهمية الفرد في المجتمع الأوروبي.

إن حي بن يقظان يختلف اختلافاً بيناً عن كروزو، فالبطل العربي لم يعرف بشراً، ولم يألف إنساناً، ولم يعيش حياة اجتماعية وثقافية كما عاشها الملاح الإنجليزي. فلماذا جاء حي بن يقظان بصورة للإنسان يتدرج شيئاً فشيئاً في مدارج المعرفة، معولاً على فطنته وذكائه وخبرته التي تتنامى باستمرار.

توفي ابن طفيل في مراكش عام 1185 وسار المنصور في جنازته. أما مؤلفاته الكثيرة فقد ضاعت خلال الفتن التي عرفتها الأندلس ولم يبق منها غير ”حي بن يقظان“ ليشهد على عبقرية الرجل وتبحره في علوم شتى.

عن صحيفة الاندبندنت

لبدرك كل الحقائق الكونية الكبرى. تروي حكاية طفل شب في جزيرة منعزلة، ترضعه ظبية وتحميه من بقية الحيوانات، حتى تمكن بعد سنوات من الإقامة في مملكة الطبيعة، من محاكاة أصوات الحيوانات والطيور. ثم أراد التوغل أكثر في المعرفة، فعمد إلى تشريح الظبية التي كانت تغذيه بلبنها بعد موتها. ولم يزل ينعم النظر فيها حتى تمكن من فك بعض أسرار الحياة، انتقل بعد ذلك إلى الفلسفة وعلوم الدين وأثبت، بعد طول تدبر، وجود خالق يتحكم في كل شيء، وعلم بالضرورة أن كل حادث لا بد له من محدث. وفي النهاية وبعد أن انكشفت له كل هذه الحقائق قرر أن يعيش حياة زهد واعتبار. وذات يوم قدم رجل من جزيرة مجاورة يدعى أسال، فعلمه اللغة، ودرسه على الحياة الاجتماعية. واندش هذا الرجل حين لاحظ أن حياً قد تمكن بمفرده من اكتشاف كل الحقائق التي تضمنتها ديانته، معولاً على الملاحظة والاستقراء.

عندما علم حي بن يقظان أن عقائد الناس فوق الأرض باتت تنسم بالخشونة، قرر مغادرة الجزيرة والذهاب إلى الناس يرشدهم ويعلمهم. لكن الناس انصرفوا عنه ولم يهتدوا بكلامه، فقرر عندئذ العودة إلى جزيرته ليعيش في مملكة الطبيعة من جديد مع

وابن رشد، والتي أفضت إلى تلخيص أعمال أرسطو والتعليق عليها، علاوة على تأليف عدد من الرسائل والكتب الفلسفية.

وروى ابن رشد بتأثر كبير قصة لقائه الأول بالأمير، بحضور ابن طفيل الذي أطنب في مديحه، مشيداً بأخلاقه، منوها بتبحره في شتى العلوم. يقول ابن رشد ”كان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيكم في السماء؟ يعني الفلاسفة أقديمة أم محدثة؟ فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأذكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل. ففهم أمير المؤمنين مني الورع والحياء فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألتني عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأقلاطون وجميع الفلاسفة، ويذكر مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزارة علم لم أظنها في أحد من المنشغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بما لم أظن به من مركب“.

هذه القصة تنطوي على موقف ابن طفيل من العلاقة بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين، فتصور بأسلوب ممتع مغامرة العقل الإنساني يتدرج من المحسوس إلى المعقول ومن التجسيد إلى التجريد،

حي بن يقظان لابن طفيل



manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

عزى ريم

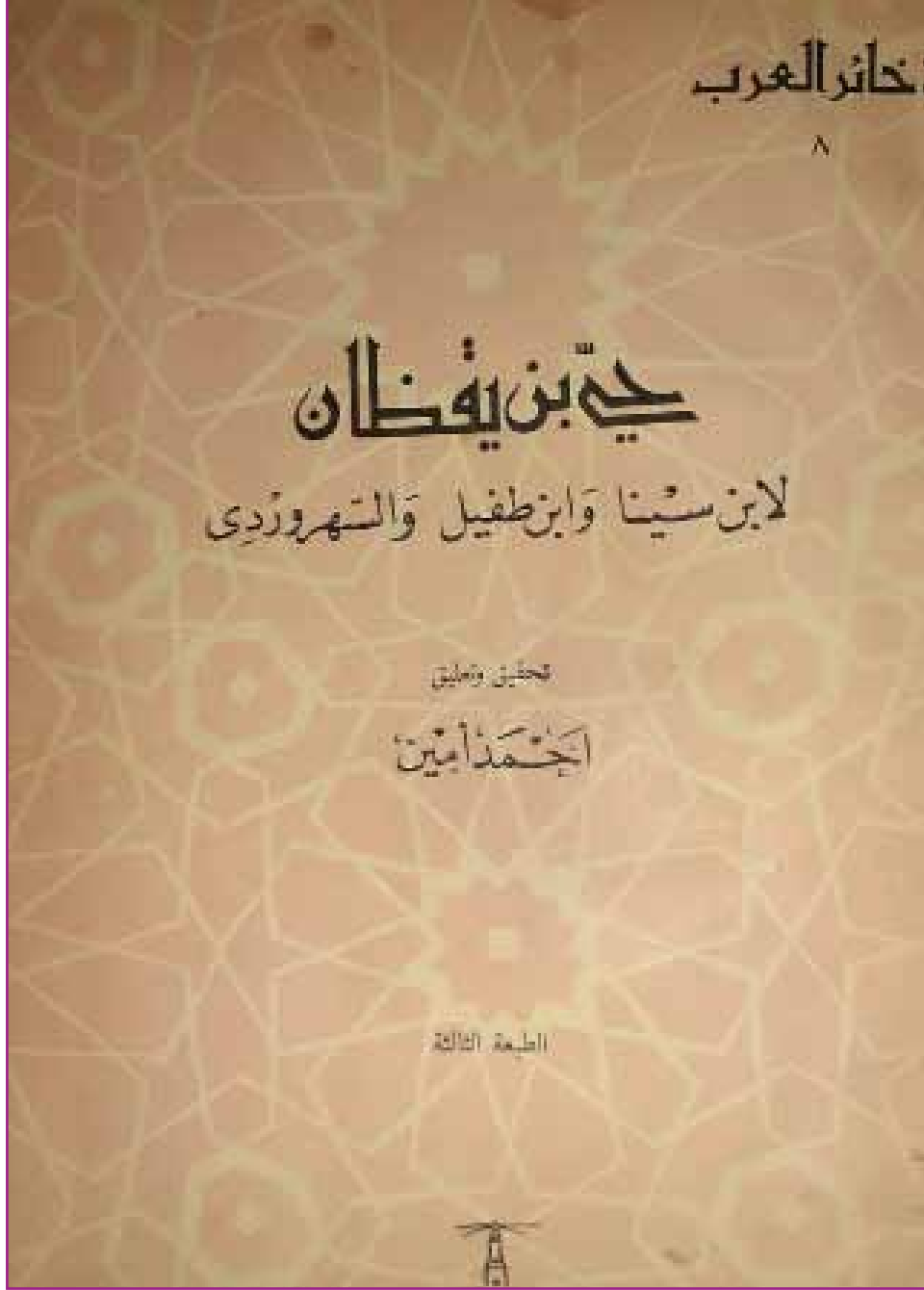
علي

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة للإعلام
والثقافة والفنون



الهندي فحنت عليه ظبية ارضعته وحمته حتى شب عن الطوق ليعيش مع الحيوانات ويكتشف طباعها وحياتها وموتها ، وتعلم من الطبيعة كسوة نفسه وعاش صدمة الموت عندما ماتت امه الظبية امامه ولم يهتد الى سر رحلتها الابدية لكنه قام بدفنها ، مستمرا في رحلة حياة وسط طبيعة قاسية اكتشف فيها معنى البرد والحر والنار والنجوم والاضواء واختلاف الاجسام والاشكال في رحلة عقلية فريدة استمرت خمسين عاما بعد الخمسين وصل جزيرته فتيان من اهل الخير والعلم هما ابسال وسلمان فاقتنيا اثره وتابعاه حتى اطمأن اليهما وبدا معها رحلة معرفية اخرى تجلت في مناقشاته ومعها وفي وصوله الى الحياة الاجتماعية التي كان يفتردها. كان ابسال رمزا للرجل الدين الباحث عن المعاني الروحانية وكان سلمان رمز رجل الدين المنعلق بظواهر الدين فيما كان ابن يقظان رمز العقل الانساني المتحرر، وكانت رحلة المعرفة بينهم رحلة ممتعة ومثمرة فلسفيا ودينيا اثرت حكاية ابن طفيل هذه في اوربا فلسفيا ودراميا واستخرجت منها افلام ومسلسلات منها طرزان رجل الادغال روبنسن كروزو، وغيرها..

افضل فترات حياته العملية تلك التي قضاه في خدمة يوسف القيسي ، سلطان الموحيين حيث اصبح وزيره وطبيبه الاول ، وقد كان السلطان ابو يعقوب يوسف محبا للعلم والعلماء وقد قام ابن طفيل بالبحث عن افضل المسالك الفكرية وجلبها الى بلاط السلطان وفي المقدمة منهم ابن رشد ، وكان السلطان يتعاطى معهم معطيات الفلسفة وفلسفة ارسطو طاليس على وجه الخصوص ويناديهما وسواهما حتى ضعفت حال ابن طفيل الصحية فتقاعد عن العمل اليومي وتولى منصبه كطبيب أول ووزير صديقه ابن رشد، وبقي ابن طفيل على مكانته الاجتماعية عند السلطان وعند السلطان ابي يوسف يعقوب حتى وفاته في مراكش سنة 1185 م. لابن طفيل مؤلفات في الطب والفلك ويقول تلميذه البيروني انه عثر على نظام فلكي وتحليل لحركة الافلاك على نحو مخالف لتفسير بطليموس. وحي بن يقظان اهم كتب ابن طفيل واكثرها تقديرا وامتاعا وقد حققت مرارا وترجمت الى اللغات الحية لتحقيق على نحو فلسفي رحلة الانسان حالة كينونته حي بن يقظان عثر عليه طفلا ملفوفا في قماط؛ وسط تابوت حط على جزيرة في البحر

باسم عبد الحميد حمودي

مؤلف هذه القصة الفلسفية التي ألف مثلها ابن سينا والسهروردي، هو الفيلسوف الاندلسي محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل ، ولد شمال شرقي قرطبة في السنوات العشر الاولى من القرن الثاني عشر للميلاد ، ودرس العلوم الدينية والفقه والعلوم العقلية وفي مقدمتها الطب الذي مارسه ثم اشتغل كاتباً في ديوان عامل غرناطة فترة من الزمن.

«حي بن يقظان» لابن طفيل: العودة الى معرفة الذات السقراطية



في واحد من حوارات أفلاطون السقراطية، يرينا الفيلسوف استاذة وقد شاء أن يثبت ان المعرفة الحققة موجودة في داخل الانسان، لا تأتيه من خارجه، وأنه يكفي أن يوجد الظرف والدافع حتى تطلع من داخل الكائن البشري الواعي ولو بصورة عفوية، معارفه وقدرته على الربط بينها لاستخلاص افكار جديدة، بل حتى معارف سابقة الوجود ليس من الضروري ان تكون قد لُقنت من طريق معلم ما. ففي ذلك الحوار، وإذ يتحدى البعض سقراط أن يؤكد هذا، يلتفت سقراط الى عبد فتى كان في المكان ويروح طارحاً عليه جملة أسئلة متشابهة ومتراپطة، يجيب عنها الفتى بالتدريج، من دون أن يكون هو، أصلاً، عارفاً بقدرته على الإجابة، وذلك أمام ذهول الحاضرين.



إبراهيم العريس

ثمة وسيط في ذلك وبالتحديد خارج اي مجتمع انساني ومن دون معرفة اية لغة او اي تاريخ وما شابه.

ونعرف طبعاً ان هذا النص قد قرئ منذ زمن بعيد وتداولته أجيال من القراء العاديين - كنص روائي طبعاً، بما في ذلك صيغ منه كتبت مبسطة للغتيان في اللغة العربية على الأقل -، كما تداولته أجيال وطبقات من الباحثين، إنما هذه المرة لغايات أخرى... فإننا نعرف أيضاً ان النص الذي تداولته العامة إنما كان غالباً جزءاً اول من مجموع العمل. حيث ان الأجيال المتلاحقة من القراء اكتفت دائماً من «حي بن يقظان» بجزء أول منها، يروي حكاية الفتى الذي وصل طفلاً بطريفة غامضة، الى جزيرة نائية في المحيط الهندي، ثم بدأ يعي الوجود وما حوله بالتدريج، مفضياً سنوات طفولته ومرأهته من دون اي رفيق من إخوانه في البشرية او انيس، فإن ثمة جزءاً ثانياً من ذلك النص، قلما التفت اليه القراء العاديون بل قلما نشر في طبغات شعبية وبالتالي لم يُصِر ابداء الى تلخيصه وتبسيط سياقه ومعانيه كي يقرأه البسطاء من الناس، على رغم ان هذا الجزء أثار دائماً اهتمام الباحثين المتخصصين. وهذا الجزء هو الذي يشكل خاتمة الرواية، ويسر الأحداث والمواقف التي تتوالى بعد عودة حي بن يقظان وأسأل (أو أبسال وفق بعض الروايات) من جزيرة سلامان، وهي الجزيرة المجاورة التي كانا قد توجهنا اليها لكي يتولى حي بن يقظان فيها تعليم الناس أموراً تتعلق بالحقائق الصوفية، عبر غرض النظر هنا على الأقل عن أية أشكال خارجية من أشكال التعليم الديني. حيث نجد بعد تلك العودة أن الأمور تبدأ بالاتضح وتبين لحي بن يقظان ورفيقه ان من الأفضل عدم إثارة تلك الأنفس البسيطة المعتادة على التعاليم التقليدية التي تأتيها من أعلى، بتلقينها دروساً جديدة وأفكاراً غريبة عنها تتوصل اليها هذه المرة من طريق اساتذة وباحثين متنورين. ان الاستنتاج هنا يفيد بأن من الأفضل ترك نفوس أو أفكار أولئك الناس البسطاء الطيبين على ما

وهذه المعرفة الداخلية هي الموضوع الأساس لو احد من أجمل الأعمال في تاريخ النصوص الفلسفية العربية: «حي بن يقظان» للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل، هذا النص الذي لا يتردد كثيرون أمام اعتباره «رواية» حقيقية بالنظر الى أنه يحمل سمات العمل الروائي كافة. ونعرف ان كثراً من الباحثين والمؤرخين يعتبرون ان هذا العمل الروائي - الفلسفي الأندلسي قد أثر في عدد كبير من الأدباء والفلاسفة. بل إن منهم من يقول ان نص «حي بن يقظان» إنما هو الأصل الأول الذي بنيت عليه تفاصيل بل حبكة رواية «روبنسون كروزو» الشهيرة والتي تعتبر بدورها تأسيسية في الأدب الأوروبية.

غير ان الفيلسوف والمفكر الأندلسي المسلم ابن طفيل، حين كتب «حي بن يقظان» في أواسط القرن الثاني عشر، لم يكن يتوخى منها، طبعاً أن تكون عملاً أدبياً، أو فلسفياً، (كما لم يكن في ذهنه ان كثراً سيأتون من بعده ليروا انها ساهمت «في تأسيس» الأدب الروائية أو حتى الفلسفية الأوروبية). لم يكن اي من هذه المسائل يشغل بال الرجل. كل ما في الأمر أنه أراد من خلال كتابته نص «حي بن يقظان» ان يثبت ويوضح الكثير من نظرياته الفلسفية. ويقينا، في هذا الإطار، انه لم يكن من قبيل المصادفة، أن يستخدم ابن طفيل في كتابة هذا العمل، حبكة كان سبق للفيلسوف ابن سينا، في المشرق الإسلامي أن استخدمها من قبله، في عمل مشابه، وأيضاً للتعبير عن مواقف فلسفية أكثر بكثير مما لتقديم عمل روائي أو حكاية مسلية.

إذا، على غرار الفيلسوف المشرقي الكبير وعلى خطاه، كان ما أراد ابن طفيل التعبير عنه، كما يمكننا ان ندرك بسرعة، قدرات العقل الانساني على ادراك الحقائق، حتى من دون أي تدخل تعليمي من الخارج والتحديد انطلاقاً من الفكرة الأفلاطونية - السقراطية التي أشرنا اليها اول هذا الكلام. حيث من الواضح ان الجانب الأساس في هذا النص هو وصف كيف يقبض لحي بن يقظان أن يدرك حقائق الوجود والالهوية، وعلاقته هو نفسه بالدين والإيمان، من دون أن يكون



Translated with an Introduction
and Notes by Lenn Evan Goodman
WITH A NEW PREFACE

جزيرة سلامان، وفشل التجربة.

من الواضح أن ابن طفيل، لم يشأ هنا أن يروي حكاية، بمقدار ما شاء أن يرسم سيرة ذاتية فكرية للفيلسوف (له هو أيضاً) مستنداً أصلاً الى نص ابن سينا. ومن هنا، فإن الأحداث والمواقف والتبدلات، سرعان ما تتخذ طابعاً رمزياً لا شك فيه، ما يجعل النص كله عملاً فلسفياً لا روائياً، وعملاً فلسفياً موضوعه الانسان نفسه، مجرداً من كل عنصر يخرج عنه. وكان ابن طفيل أراد أن يبرهن على صحة مقولة سقراط الشهيرة «اعرف نفسك بنفسك». ويقينا أنه نجح في ذلك، حتى ولو كانت النتيجة عودة بطله الى وحدته والى ذاته.

ولد ابن طفيل عند بدايات القرن الثاني عشر الميلادي في قادس (وادي أش)، ومن هنا لقبه «فيلسوف قادس»

وتوفي في مراكش بين العامين 1185 و1186. وهو عرف بسبعة اطلاعه إذ كان طبيباً ورياضياً ومنجماً وشاعراً وفيلسوفاً. عمل وزيراً لدى أمير غرناطة قبل أن يتوجه الى مراكش ليعمل طبيباً ووزيراً لدى أبي يعقوب يوسف، وكان هو الذي قدم صديقه ابن رشد الى ذلك الخليفة المنتور مقترحاً عليه تكليفه شرح كتابات أرسطو. وعلى رغم تعدد كتابات ابن طفيل الفكرية، فإن «حي بن يقظان» تبقى الأهم والأشهر بين أعماله.

عن ارشيف صحيفة الحياة

هي عليه. وعند النهاية هنا نرى كيف ان حي، إذ يدرك هذه الحقيقة بالتجربة، ويدرك في الوقت نفسه، أهمية التعليم الخارجي بالنسبة الى الجموع يعود الى جزيرته مع أبسال ويكرس نفسه للمعرفة الاشرافية مكتفياً بالعمل على تلك النفس. هل فشلت تجربة حي بن يقظان؟ ليس تماماً... كل ما في الأمر أن حي و «أستاده» يدركان أن المجتمع البشري «مستعصي الشفاء» (وفق تعبير الأستاذ هنري كوربان). ومن هنا، فإن الرفيقين يعودان الى جزيرتهما التي كانا قد انطلقا منها، و «قد أدركا، بالتجربة، ان الكمال وبالتالي السعادة، لا يجد اليهما سبيلاً إلا نذر قليل من أولئك الذين توافرت لديهم قوة التخلي والإعراض».

وفي عودة الى السياق الروائي لهذا النص، نذكر بأن حي بن يقظان هو، كما نعرف، طفل ولد من غير أم أو أب أو من زواج سري، ووضع في صندوق رمي في البحر، وهو بعد ان يمضي زمناً في البحر يفوق على حاله، ليجد نفسه في جزيرة موحشة نائية، وعلى الفور تلتقيه ظبية كانت فقدت وليدها فترضعه وتربيته. وهو حين يصل الى سن الصبا يبدأ التعرف الى ما حوله، ويظل على تلك الصال قرابة الخمسين عاماً، متوحداً (وفي هذا ما يلتقي مع «متوحد» ابن باجة) يتأمل الكون حوله، ويكون لنفسه آراءه ومعارفه، من دون لغة ومن دون استناد ومن دون أي عون بشري من الخارج. وبعد في سن الخمسين يكون لقاؤه مع أسال (أبسال)، ومغامرة توجههما معا الى